# وصايا شولتز قبيل وداعه

الحياة - ٨٨/١٠/٢٥

■ بعد ست سنوات ونيف قضاها على راس الدبلوماسية الاميركية ودعنا جورج شولتز بتصور شامل متكامل، للامثولات التي استخرجها من تجربته ولتلك التي قرر التبرع بها لخلفه. فجاء ذلك في خطاب بعنوان «الاستراتيجية الاميركية في الشرق الأوسط» بعنوان اكبر، لا مهرب منه للضمير البروتستانتي المسالم. «بناة في سبيل السلام» وجاءت ردود الفعل العربية، في جلّها، تتناتش جملة من هنا، وفكرة من هناك، لتدخلها في طاحونة المزايدات العربية، والانفعالات المجتزاة.

لكن كلاماً بهذه الدقة، ومن مصدر كهذا، يستحق وقفة غير تلك التي راينا، ويقتضي علينا بادىء ذي بدء إيجاز الموقف الاميركي وتتبعه فكرة فكرة، في محاولة فهم قواعده وتصور امكانيات تنفيذه. لا لأن ما نراه كلاماً سيترجم في الغد، وبالضرورة، الى سياسات تفصيلية. بل لأن التنوع والتعدد في المواقع والمواقف يجعلان واشنطن مبهمة للكثيرين. فعندما يصدر موقف يصدر عن قلب النخبة السياسية الحاكمة، يلتقي عنده الى حد كبير الحزبان المتنافسان، علينا تامله. وتوقع انعكاساته. فما هي فرضيات شولتز، وما هي توقعاته ونصائحه لمن سيخلفه؟

نزع الجانب الاقليمي

الفرضية الاساسية تتعلق بصراع العرب واسرئيل. يجزم شولتز هنا بين القراءات الممكنة للصراع، والمتداولة في واشنطن وخارجها، لصالح قراءة واحدة مضمونها تحول الصراع الى نزاع داخلي، شبه طائفي، داخل فسلطين الانتداب بين اليهود والفلسطينيين. هذا يعني ان شولتز قد تخلى بصورة جازمة عن قراءات اخرى كثيرة ممكنة كانت تشدد على طبيعة الصراع كامتداد لخلاف الشرق والغرب وانعكاساً محلياً له، او كنزاع بين اسرائيل والدول العربية. وهذا تحول يبدو لنا في غاية الاهمية اذ يحمل في طيّاته اموراً عديدة، بينها السلبي والايجابي من وجهة النظر العربية.

فهذه القراءة تنحو نحو نزع الجانب الاقليمي للصراع، وجانبه الدولي ايضاً، باتجاه التركيز على جانبه المحلّي. هنا انزلاق واضح نحو اعتبار النزاع في مرحلته الحالية، نوعاً من الحرب الاهلية، او على الاقل الداخلية التي تمكن مقارنتها بالحرب اللبنانية مثلاً. الايجابي طبعاً هو بروز الهوية الفلسطينية في هذه القراءة، او بالاحرى بروز الفلسطينيين كاللاعب العربي الاول. ولكن هذا يعني ضمناً ان الدعم العربي سيصبح نوعاً من التدخل في الشؤون الداخلية للتركيبة الاسرائيلية - الفلسطينية، وان الدور الاردني في مرحلة أفول (وبالتالي الدور السوري ايضاً). القوميون العرب قد يستاؤون من هذه القراءة الاميركية الجديدة، لكن غير فلسطيني قد يجد فيها باباً نحو الكيان. هذا لا يعني ان دور الدول العربية اصبح معدوماً. فشولتز يعترف به، ويرى ان ادخال الصواريخ الطويلة المدى الى الترسانات المحلية يزيد تقنياً من خطورته. لكن الانزلاق المفهومي واضح تماماً من الاقليمي الى المحلّي كمستوى اساسي للتحليل.

لكن شولتز ما يلبث ان يفاجئنا: فالانزلاق المفهومي لا يسهل برايه حل النزاع، بل يزيد الحل صعوبة، وكان اي بروز للعنصر الفلسطيني في المعادلة نوع من إعدام لامكانيات السلام. وهنا القدم العتيقة لهذا الكلام الجديد، بينما كان من الممكن تصور الانزلاق نحو الداخل كخطوة نحو سلام ممكن. لا، يقول شولتز، هذا الانزلاق يعقد الامور كثيراً، ويبدو وكانه قد قضى تماماً على مبادرته الشهيرة ولو انه لا يعترف بذلك بصراحة. بل هو ينصح خلفه بالتروي الشديد، «ذلك لأن الانفراجات السلمية اصبحت صعبة للغاية». وما على الرئيس الاميركي المقبل، والحال كذلك، الا التروي والعمل للعودة لشروط جديدة وجو اخر، بدل الاندفاع مباشرة نحو تشجيع التفاوض بين الاطراف بكلام اوضح، لا يكتفي شولتز بالاعتراف ضمناً بفشل مبادرته، مع نمو الانتفاضة الفلسطينية، بل هو يطلب من خلفه عدم المبادرة قبل زمن طويل لئلا يواجهه المازق نفسه. وان جدق شولتز في كلامه، وإن لاقى كلامه صدىً، فمعنى ذلك ان انتظار شيء من واشنطن في الاشهر القليلة المقبلة، وربما في السنوات القليلة المقبلة، نوع من السراب. وعلى العرب الذين دخلوا في حالة الانتظار هذه، تامل هذه النصائح الشولتزية بدقة.

عندها نرى

لا يتوقف شولتز عند هذا الحد، فتشاؤمه اقسى مما يعتقد. وحل القضية الفلسطينية ليس مستعصياً فحسب، وانما هو يعتقد ايضاً ان محاولة حلها ستاتي بنتائج معاكسة. الخلاصة واضحة إذن: يجب التوقف عن اطلاق المبادرات، وإن تغير الوضع في المنطقة نرى. وفي حال تبدل الاوضاع، تبقى الاهداف القديمة هي هي: قبول مبدئي «بالحكم الذاتي» الفلسطيني، مشروط منذ الاساس بما ترى تل ابيب وعمان انه اساسي لامنهما. بمعنى اخر ان الاعتبارات الأمنية لكل من اسرائيل والاردن تفوق في اهميتها اي امر اخر. وعلى هذا الاساس فان قبول إدخال الفلسطينيين في اللعبة شرطه قبولهم المسبق بهذه الافضلية الهرمية. ولمزيد من التاكيد هناك ضرورة لفترة انتقالية طويلة يتم فيها امتحان قبول الفلسطينيين بهذه الافضلية. ولكن عناصر وضع تفاوضي كهذا يسمح بالبدء في «عملية السلام» هي، برأي شولتز، غير متوافرة، في المرحلة الراهنة.

حتى الآن، يرى شولتز ان «منظمة التحرير» قد رسبت مراراً وتكراراً في الامتحان الذي حدده لها. من هنا موقفه المتشدد جداً والقاضي بالابقاء الصريح على الموقف الاميركي السابق من المنظمة. ولا يخفي شولتز حقيقة رهانه على المدى المتوسط: منع منظمة التحرير من تسجيل أي مكسب في المرحلة الحالية سيؤدي تدريجياً الى شرخ متزايد بين قيادة المنظمة وقيادة الانتفاضة بحيث يتم تهميش الأولى بينما تتحرر الثانية في الآن معاً من ضغط قيادة المنظمة من جهة ومن التيار الاسلامي من جهة اخرى. وان كان هذا هو الرهان، فتحقيقه

يتطلب وقتاً طويلاً وتشدداً اميركياً. وفي هذا تحية اخرى للجالسين في قاعة الانتظار. اذ ان المطلوب، وعلى فترة طويلة، تسريب افكار بقبول حقوق الفلسطينيين المشروعة فيتعود الاسرائيلي عليها بينما تبرز تدريجياً قيادة فلسطينية محلية اخرى. والكلام صريح مرة اخرى: إن كان الصراع ينزلق تدريجياً نحو المحلي، فالمطلوب قيادة محلية للتفاوض. والقيادة المحلية الراشدة في هذا السياق هي التي تقبل بطبيعة الصراع المحلية (الداخلية)، اي عملياً تلك التي تدير قفاها للخارج، بعربه وفلسطينييه.

تمتين وتأجيل

ما العمل ريثما ياتي هذا الرهان بثماره؟ اولاً وقبل كل شيء تشديد العلاقة الاميركية - الاسرائيلية وتمتينها كالحديد الصلب. بعد ذلك يمكن الحديث مع اسرائيل على «تخفيف مستوى العنف الحالي»، وتزايد «الاعمال المثمرة للثقة المتبادلة». وان نجح هذا المسار، اي إن وهنت المواجهة الدامية الحالية، وتزايدت الثقة، امكن التفكير باجراء انتخابات حرة في الاراضي المحتلة سنة ١٩٦٧. بكلام اخر، الانتخابات هي ايضاً ليست للقريب من الزمن، انها لمرحلة تالية يصعب تحديد بدئها. فالشروط المطلوبة لها نفسية في الاساس، فمن يحدد زمان نضوجها، ومستوى هذا النضوج؟

وبينما يتجنب شولتز ذكر اي دور للعرب في خلال هذه الفترة (اوليس النزاع محلياً؟) يبقي على دور ما للاردن. يقول شولتز ان «كياناً» فلسطينياً ما سيبرز، وان الاردن هو نوع من الحامي له. «فالاردن لم يعد يكفي في عملية السلام» يقول شولتز، ولكن دوره مازال قائماً لا سيما في المرحلة المقبلة غير الفورية.

هل يتم كل هذا في ضوء ميزان القوى العسكري الحالي في المنطقة؟ يرى شولتز ان الجهد يجب ان ينصب «اكثر من الماضي» على منع المواجهة العسكرية بين اسرائيل والدول العربية. واولى الوسائل لذلك بنظره، هي في تمتين التفوق العسكري الاسرئيلي، خصوصاً بسبب تمسك سورية بفكرة «التوازن الاستراتيجي». سورية متهمة اذن بمتابعة سباق التسلح ولكن حواراً يجب ان يستمر معها على اي حال وهو حوار هدفه الاساسي ابقاء الاتصال قائماً بين واشنطن ودمشق في حال حدوث ازمة سورية - اسرائيلية. ولكن هذا الحوار يجب ان يرافقه «ردع صارم» لنوايا سورية تجاه اسرائيل.

ولا يتجنب شولتز التفصيل هنا. فردع سوريا امر ينبغي على الولايات المتحدة الاسهام فيه وذلك من خلال وسائل ثلاث. الأولى في تقوية التعاون الاستراتيجي بين اسرائيل والولايات المتحدة فتتمكن الأولى، بمساعدة واشنطن عن تطوير جهاز عسكري يحميها من الصواريخ العربية البعيدة المدى. والثانية بثني العراق عن اي تقارب مع سورية بهدف تنسيق «موقف رافض» عراقي - سوري موحد. والثالثة هي تثبيت ركائز اتفاقيات السلام بين مصر واسرائيل.

العتيق في ثوب جديد

ولا يرى شولتز تناقضاً بين هذا السعي لتمتين التفوق العسكري الاسرائيلي وبين دعوته لاجراء محادثات سريعة مع الاتحاد السوفياتي والصين واوروبا الغربية، بل مع الارجنتين والبرازيل وكوريا الشمالية بهدف وقف تصديرصورايخها للمنطقة. وهنا يصبح الجرح العربي بليغاً إذ ان شولتز يريد من بلاده مساعدة اسرائيل بحزم ومحاولة حجب السلاح عن الأطراف العربية الساعية لتحدي هذا التفوق. هنا ايضاً جدة الكلام وصراحته لا تحجبان ابداً عتق الموقف الاميركي. خصوصاً وان شولتز يريد ايضاً تقييد حرية دول «صديقة» كمصر والمملكة العربية السعودية في مسالة نشر صواريخها من خلال اتفاقات ضمنية غير معلنة، تقوم واشنطن بالتوسط في سبيلها مع اسرائيل. ناهيك طبعاً عن الانتقاد الحاد لاستعمال الاسلحة الكيماوية.

ولكن، اليس مفيداً الحصول على دعم سوفياتي لتنفيذ هذا البرنامج الاميركي الواسع؟ هنا ايضاً يعود شولتز الى مهنته القديمة (استاذ جامعي) فيقرر ضرورة امتحان نوايا الاتحاد السوفياتي قبل دعوته للاسهام في «صنع السلام». لكي تدخل موسكو هذا النادي الراقي عليها اولاً ان تمتنع عن تزويد سورية بالأسلحة المتقدمة، وان تعيد علاقاتها الديبلوماسية الكاملة مع اسرائيل، وان تتخلى عن مبدا العودة لحدود سنة ١٩٦٧، وان تؤكد على حق اسرائيل، بالوجود والأمن، وان تقلل من الشروط الموضوعة على هجرة اليهود السوفيات، وان تسعى لتعديل المواقف السورية والفلسطينية من الحل، وان تبدل من مواقفها داخل الامم المتحدة. هذا ولم اذكر كل شيء اعلم، على موسكو ان تقوم بكل هذا لأن مصلحة واشنطن في مؤتمر دولي حول الشرق الأوسط يكاد يكون معدوماً. والقبول به هو القبول اساساً بمطلب سوفياتي. لذلك فالقبول هذا، إن حصل، مشروط بكل ما سبق، بالاضافة الى كونه مجرد غطاء شفاف للمفاوضات المباشرة.

هكذا تكلم شولتز. والخلاصة، من وجهة نظر فلسطينية، انه انتهى بلحظ وجود انتفاضة (الكلمة العربية موجودة في النص الانكليزي)، وبان الاردن لم يعد يكفي، وبان الهدف هو نوع من «الكيان». ولكن فما اكثر الشروط واصعبها التي يضعها الوزير الاميركي، الذي جاء بصيت مؤيد للعرب، على طريق هذا الهدف! وهي شروط يتحمل وزرها بصورة شبه حصرية الفلسطينيون والعرب الآخرون والسوفيات. ياللهدية الظريفة بعد ست سنوات من الحكم، واشهر من المبادرة الشولتزية النشطة! اما العرب فما عليهم الا التمعن في كل ما سبق، والكف عن الانتظار، واخذ كلام شولتز الصريح والواضح محمل الجد.

واما المتافقون من هذا السيناريو المحبط فما عليهم الا ان يكفوا عن الاستماع لصاحبه، وان ينظروا شطر شرقنا العربي، علّ ان تصيب حصى فتيان غزة بعضاً من هذه الصورة الوداعية القاتمة.

غسان سلامة